ووجدك عائلا فأغنى

الدكتور
سعيد محمد أحمد قابل
أستاذ مساعد بقسم الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى اله وأصحابه الغر الميامين ومن سار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد

فإن دراسة الحالة الإقتصادية المتعلقة بشخص الحبيب (ﷺ) هى من القضايا المهمة لهذه الأمة حيث إن تمام الإقتداء به (ﷺ) لا يتم إلا بمعرفة كل ما يتعلق بحياته (ﷺ) ، خاصة هذا الجانب لأن الوقوف عليه سوف يصوب الأخطاء المتعلقة بشخص الرسول (ﷺ) ،وكثير من الأمة المسلمة يقع فيها وقد اشرت إليها فى هذا البحث وحاولت علاجها من واقع شريعتنا الغراء وما يتعلق بسيرته من نشأته إلى مماته (ﷺ) كذلك تتحقق القدوة بشخصه المبارك فى تحويل مسار حياته من خط الفقر الذى نشأ فيه إلى سعة الغنى التى أدركها ، وكيف كان صابراً وكيف كان شاكراً ..

كل هذه الأمور وغيرها دفعتنى إلى هذه المحاولة للوقوف على هذا الجانب من حياته (ﷺ) .

فارجوا من الله ان أكون قد وفقت فى معالجة هذا الجانب على قدر استطاعتى وقليل جهدى ..

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

* التمهيد ويشتمل على : -

١ – طبيعة هذا الموضوع :

هذا البحث يدور حول حياة الرسول (ﷺ) الإقتصادية الخاصة به، ونظرته إلى المال ، ومدى قابليته له ، ومدى إعراضه عنه ، وهل هو لذاته أم لآثاره ، وهل كان (ﷺ) فقيراً أم زاهداً ؟

ومعنى طلبه أن يعيش مسكينا وان يموت مسكينا وان يحشر فى زمرة المساكين وما معنى المسكنة فى هذا الحديث وهل هى الفقر أم هى مسكنة القلب .

٢ – أهمية هذا الموضوع :

تبدو أهمية هذا الموضوع من خلال النقاط التالية :

١ – بيان حقيقة مستوى الرسول (ﷺ) الإقتصادى ، وطبيعة الملكية الفردية فى حياته (ﷺ) .

٢ – بيان حقيقة التوازن الإقتصادى الذى أحدثه النبى (ﷺ) فى المجتمع الإسلامى .

٣ – بيان براعته (ﷺ) فى تفجير الطاقات الإنسانية واستغلال المقدرات الإقتصادية لتحقيق حضارة انسانية شاملة ليس لها مثيل .

٤ – صلاح منهجه الإقتصادى لكل زمان ومكان .

" المبحث الأول "

" الظروف الإقتصادية لمكه المكرمة "

كانت طبيعة الحياة فى الجزيرة العربية الشطف ..

وكانت الحياة الإقتصادية فى مكة لها طبيعتها الخاصة فسهولها ضيقة وجبالها وعرة ، وأكثر سكانها يهدون الجبال لوضع مساكنهم

وكانت الحياة الإقتصادية لاهل مكه تعتمد على التجارة

والقرآن الكريم قد ذكر لنا البعد التاريخى لهذا البلد الأمين حينما ذكر لنا قصة الخليل إبراهيم عليه السلام .

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) [ابراهيم : آية ٣٧] .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ) [البقرة : اية ١٢٦] ولقد استجاب الله تعالى وجعل مكة بدعوة الخليل عليه السلام حافلة بالخيرات قال تعالى :

(لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ)

من خلال تلك الأيات يتبين لنا :

أولا : طبيعة الحياة فى مكة عند هجرة الخليل عليه السلام إليها بامرأته وولده وأنها كانت غير ذى زرع .

والزرع دليل على وجود الماء .

قال أبو جعفر :(فتاويل الكلام إذن : ربنا إنى أسكنت بعض ولدى بواد غير ذى زَرْع ، وفى قوله (ﷺ) دليل على أن لم يكن هناك يومئذ ماء ، لأنه لو كان هنالك ماء لم يصفه بأنه غير ذى نرع)(١) .

ولما كان المكان غير ذى زرع لعدم وجود الماء فيه كان مهجوراً من البشر ومن كل ذى كبد رطبة ..

لهذا كان دعاء الخليل عليه السلام :

---

(١) تفسير الطبرى ٧/٥٠٩ — دار الغد .

فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم

وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون

وذلك ليطمئن قلبه على أهله بتحقيق جوانب الأمن النفسى والبدنى ، وليكتمل لهم دينهم بجوارهم للبيت المكرم .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

" وارزقهم من الثمرات " أى لتكون ذلك عونا لهم على طاعتك وكما أنه واد غير ذى زرع فاجعل لهم ثمراً يأكلونها، وقد استجاب الله لهم ذلك كما قال : (أولم نمكن لهم حرما امنا يجبى إليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا) وهذا من لطفه تعالى ورحمته وبركته أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهى تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام (١)

ثانيا : ان الله تعالى حقق لنبيه وآله وفرة العيش بأمرين :

١ – **ماء زمزم** : والتى انفجرت عند قدم ولده إسماعيل عليه السلام . اكراماً لهم ولهاجر التى قالت : إذا لا يضيعنا الله .

يقول البخارى عن ابن عباس :

(اول ما اتخذ النساء المنطق (١) من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتخفى أثرها على سارة) .

وفى رواية اخرى عن ابن عباس رضى الله عنهما (٢)

(لما كان بين ابراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل ومعه شنة فيها ماء فجعلت ام إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها ، حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم : لابن كثير ٥٤١/٢ .

(٢) المنطق : بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء . ويسمى (النِّطَقْ) – وهو ما شد به الوسط ، وكانت قد أرخت طرف ليجر وراءها فمسح اثر قدميها حتى لا تتعقبها سادة لانها كانت قد اقسمت لتقطعن ثلاثة اعطاء منها ، فجعل لها سيدنا إبراهيم برا بقسمها ان تنقب اذنيها وتخفضها . [فتح البارى ٤٦١/٦ بتصرف]

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى : كتاب الانبياء : باب يزفون ٤٥٨/٦ برقم ٣٣٦٥

ثم رجع ابراهيم إلى أهله فاتبعته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه : يا إبراهيم إلى من تتركنا ؟ قال إلى الله . قالت : رضيت بالله قال فرجعت فجعلت تشرب من الشنة (١) ويدر لبنها على صبيها ، حتى لما فنى الماء قالت لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحداً ، قال : فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت هل تحس أحداً فلم تحس أحداً ، فلما بلغت الوادى سعت وأتت المروة ففعلت ذلك أشواطا ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل – تعنى الصبى – فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله ، كأنه ينشغ (٢) للموت تقرها نفسها – فقالت لو ذهبت فنظرت لعلى احسن احداً ، فذهبت فصعدت الصفا ونظرت فلم تحسن أحداً حتى اتمت سبعا ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل ، فإذا هى بصوت ، فقالت : أغث إن كان عندك خير ، فإذا جبريل ، قال : فقال بكعبه هكذا، وغمز عقبه على الأرض ، قال :فانبثق الماء ، فدهشت أم اسماعيل فجعلت تحفر ، قال : فقال ابو القاسم . لو تركته كان الماء ظاهراً . قال : فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها . قال فمر ناس من جرهم ببطن الوادى فإذا هم بطير كأنهم انكروا ذاك ، وقالوا ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هم بالماء ، فأتاهم فأخبرهم ، فأتوا إليها فقالوا يا أم إسماعيل اتاذنين لنا أن نكون معك ، أو نسكن معك ؟ فبلغ ابنُها فتكح منهم امرأة ، قال ثم انه بدا لإبراهيم فقال لأهله إنى مطلع تركتى ، قال فجاء فسلم فقال : أين اسماعيل ، فقالت امرأته : ذهب يصيد، فقالت الا تنزل وتشرب ، فقال وما طعاكم وما شرابكم ؟ قالت طعامنا اللحم وشرابنا الماء .

قال : اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم . قال فقال ابو القاسم (ﷺ) بركة بدعوة ابراهيم ، قال : ثم انه بدا لإبراهيم ، فقال لأهله إنى مطلع تركتى ، فجاء فوافق اسماعيل من وراء زمزم يصلح نبْلا له فقال : يا اسماعيل ان ربك أمرنى أن ابنى له بيتا ، قال : فأطع ربك قال : انه أمرنى فى ان تعيننى عليه ، قال : إذن إفعل ، او كما قال . قال فقاما

---

(١) الشن : القربة الخلق الصغيرة يكون فيها الماء أبرد من غيرها . انظر المعجم الوجيز ٥-٣٥٢ ، وهر القربة العتيقة كما قال ابن حجر فى الفتح ٤٦١/٦ .

(٢) ينشغ : تشغ الماء : سال ،ونشغ بالرمح : طعن ،وفلانا الكلام لقنه وعلمه ، والصبى اوجره ، والماء شربه بيده ، ونشغ : تهق حتى كاد يغشى عليه .
أنظر : القاموس المحيط ١١٤/٣ مادة نشغ ، وفى الفتح يقول ابن حجر – رحمه الله: ينشغ : يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذى ينازع ٦ / ٤٦٣ .

فجعل ابراهيم يبنى واسماعيل يناوله الحجارة ، ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) .

هذا الحديث وغيره من احاديث هذا الباب توضح أن الحياة فى مكة عند نزول سيدنا ابراهيم كانت مستحيلة لانعدام سببها الرئيسى وهو الماء .. وأن الحياة فى مكة نشأت أول ما نشأت لا على الأسباب المادية، وإنما على اليقين بالحياة الرغدة قبل أن تكون ..

فهاجر إطمأنت ولم يك عندها سبب الطمانينة لكن توفر فى قلبها يقين ان مالك كل شئ لن يضيعها ، ومن هنا حفظها الله ومن أتى من بعدها إلى يومنا هذا وأمتدت الحياة الكريمة بل صار هذا الوادى الذى كان غير زرع مثابة للناس وأمنا (١)

٢ – الإيلاف

وهو المشار إليه سورة قريش :

(لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) فالإلاف : (الامان والعمل يؤخذ لتأمين خروج التجار من أرض إلى أرض) (٢) قال الأزهرى

---

١ – المثابة : أى المرجع (مال الحسن : انهم يثوبون إليه فى كل عام ، وعن ابن عباس ومجاهد : انه لا ينصرف عنه أحدٌ إلا وهو يتمنى العود إليه) (١)

اما الأمن : فهو أن يكون المراد انه تعالى جعل أهل الحرم امنين من القحط والجدب على ما قال : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا) (١)، وقوله : (أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ) (١) .

أو أن نحمله على الأمر على سبيل التأويل ، والمعنى أن الله تعالى أمر الناس بأن يجعلوا ذلك الموضع امنا من الغارة والقتل ، فكان البيت محرماً بحكم الله تعالى ، وكان الناس فى الجاهلية متمسكين بتحريمه لا يهيجون على احد التجأ إليه ، وكانوا يسمون قريشا أهل الله تعظيما له ، ثم اعتبر فيه أمر الصيد حتى ان الكلب ليهم بالظبى خارج الحرم فيقر الظبى فيتبعه الكلب فإذا دخل الظبى الحرم لم يتبعه الكلب (١) وبالمثابة والأمن وتحقيق دعوة الخليل عليه السلام بأن يرزقهم الله من الثمرات صارت مكة مهوى الأفئدة من كل مكان من أرض الله .

(٢) المعجم الوجيز : ص ٢٢ .

: الإيلاف : شبه الإجارة بالخفارة ، يقال الف يُؤلِف : إذا أجار الحمائل بالخفارة ،والحمائل جمع حَولة)(١)

وهذا الإيلاف الذى حدث لقريش كان متمما عليهم لنعمة الامن بمكه .

لان الخير الذى كان يهبط عليهم فى موسم الحج ما كان ليكفى وكان لابد من مصدر آخر .

(ذكر عطاء عن ابن عباس ان السبب فى ذلك هو أن قريشا إذا أصاب واحدا منهم مخمصة خرج هو وعياله إلى موضع ، وضربوا على انفسهم خباءًا حتى يموتوا إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه ، وكان له ابن يقال له أسد ، وكان له ترب من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه فشكا إليه الضرر والمجاعة فدخل أسد على أمة يبكى فارسلت إلى هؤلاء بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياما ثم أتى ترب أسد إليه مرة أخرى وشكا إليه من الجوع ، فقام هاشم خطيبا فى قريش فقال :

أنكم أجدبتم جدبا تقلون فيه وتذلون وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم ، والناس لكم تبع ،قالوا :

نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف فجمع كل بنى أب على الرحلتين فى الشتاء إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وهو على ذلك ، فلم يكن فى العرب بنوأب أكثر مالاً ولا اعز من قريش، قال الشاعر فيهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافى (٢)

إن هذا التكافل الذى أحدثه هاشم بينهم كان باباً واسعاً لخير عظيم ينالهم وهو الأمان الذى حققه الله لرواحلهم ، وكان إرهاصة كذلك لنزول الإسلام عليهم لاستحقاقهم لهذا الخير ببركة صنيعهم هذا ، فمكه أرض صخرية (٣) لا تزرع ولا ترعى ، وكانت منة الله عليهم عظيمة ..

يقول القرطبى : (إن قريشا كانوا سكان الحرم ، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع ، وكانوا يمرون فى الشتاء والصيف آمنين ،والناس يتخطفون

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : للقرطبى ١٣٩/١٠ .

(٢) مفاتيح الغيب :ج١٦ – ص ١٠٠ .

(٣) أنظر السيرة النبوية (العهد المكى) : د / عبد الفتاح المشاوى –ص ٢٩ .

من حولهم ، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا نحن أهل حرم الله ، فلا يتعرض الناس لهم) (١)

وهذه منة الله عليهم – (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) (٢) .

(أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) (٣)

فالآية الأولى بيان بقيمه نعمة الأمن التى أغدقها الله عليهم فى ترحالهم ببركه حرمه ..

والثانية بيان بسعة الارزاق التى اصابتهم بوفود الحجيج إلى رحلهم معهم ثمرات كل شئ .

*** لكن متى بدأ الإيلاف : –**

(بدأ الإيلاف حوالى سنة ٥٠٠ ميلادية أى قبل ظهور الإسلام بمائة سنة أو تنداد عشرا ، وذلك أن هاشم بن عبد مناف الذى سن رحلتى الشتاء والصيف بدأ بعقد معاهدات الأمن والسلام ولد سنة ٤٦٤ ميلادية على اقرب التواريخ ، وتذهب بناءا على ذلك إلى أن مبدأ الإيلاف الذى عقده بنفسه مع قيصر الروم ومع أمير غسان كان حوالى سنة ٥٠٠ ميلادية ، وعمرة ٣٦ سنة تقريبا) (٤)

ولقد كان لهاشم بن عبد مناف بعد عظيم فى تحقيق هذا الإيلاف فقد استطاع بعلاقاته الواسعة بما أوتى من شخصية متميزة وطدت له فى نفوس الملوك والأمراء من حوله استطاع أن يجعل لبضائع مكه اسواقا فى تلك الدول والقبائل ، يشرق أهل مكة ويغربون فى أمان تام بموجب عقود الإيلاف التى عقدها هاشم مع رؤساء القبائل واصحاب النفوذ فى المنطق وكان أخوه هاشم كذلك لهم من الشخصية ما جعل نطاق الإيلاف يتسع .

---

(١) الجامع لاحكام القرآن : للقرطبى .

(٢) سورة العنكبوت : اية رقم : ٦٧ .

(٣) سورة القصص : اية رقم : ٥٧ .

(٤) مجلة منار الإسلام : سورة قريش دلالات تاريخية: د / معتصم محمود رمان – العدد العاشر – السنة ٢١ شوال ١٤١٦ / فبراير ١١٩٦ – ص ٦ .

فقد (خرج أخوه المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فأخذ من ملوكها عهد أمان ، وعقد الإيلاف مع سادات القبائل فى الطريق كما فعل هاشم ، وخرج عبد شمس الأخ الثالث إلى الحبشة فأخذ عهد الأمان والإيلاف كأخويه ، وخرج نوفل الأخ الرابع إلى فارس وكان أصغر إخوته فأخذ عهد الأمان من كسرى ، وعقد إيلافا مع أعراب الطريق) (١) .

ولم يكن هذا الإيلاف أمراً هينا ، ولم يكن الناس مهيئين لذلك فى زمن البقاء فيه للأقوى شكيمة بما أوتى من وسائل التخريب والدمار والسلب والنهب ، بل إن القبائل الكبرى كانت تتعرض قوافلها للمخاطر ولكن الله تعالى وفق هاشم بن عبد مناف وإخوته إلى هذا الإيلاف وكتب له النجاح العظيم إكراماً لقريش التى سيكون منها نبيه المصطفى (ﷺ)،وليكتب لها الإستقرار والمقام بمكه لتتلقى نور الله المبين .

* حادث الفيل وأثره الإقتصادى على قريش

الحديث عن هذا الحادث يتلخص فى النقاط التالية :

* الحدث بإيجاز .

* أثره على قريش إقتصاديا .

اما احداث الفيل فقد عنى القران الكريم بذكرها وسماها سورة الفيل قال تعالى :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) (٢)

والقصة كما يذكرها الفخر الرازى فى مفاتيح الغيب (٣)

(ان ابرهة بن الصباح الاشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشى بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس ، وأراد أن يصرف إليها الحاج فخرج رجل من بنى كنانة وتغوط فيها ليلاً فأغضبه ذلك وقيل : اججت رفقة من العرب نارا فحملتها الريح فأحرقتها ، فحلف ليهدمن الكعبة ،

---

(١) مجلة منار الإسلام : العدد العاشر لسنة ٢١ – ص ٦ بتصرف .

(٢) سورة الفيل .

(٣) التفسير الكبير : ج ١٦ – ص ٩١-٩٢ .

فخرج بالجيش ومعه فيل اسمه محمود وكان قويا عظيما وثمانية أخرى ، وقيل اثنا عشر ، وقيل ألف ، فلما بلغ قريبا من مكة خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى وعبأ جيشة وقدم الفيل فكانوا كلما وجهوه إلى جهة الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى جهة اليمن أو إلى سائر الجهات هرول ، ثم ان أبرهه أخذ لعبد المطلب مائتى بعير فخرج إليهم فيها فعظم فى عين أبرهه ، وكان رجلا جسيما وسيما ، وقيل هذا سيد قريش ، وصاحب عير مكه ، فلما ذكر حاجته ، قال سقطت من عينى جئت لأهدم البيت الذى هو دينك ودين آبائك ، فأنهاك عنه ذود أخذلك ، فقال أنا رب الأبل ، وللبيت رب سيمنعك عنه، ثم رجع وأتى البيت ،وأخذ بحلقته وهو يقول :

لاهم إن المرء يمـــــــنع رحله فامنع رحالك
والصبر على آل الصليـ ـب وعابديه اليوم الـك
لا يغلب صليبهـــــم ومحالهـــم أبدا محالـك
إن كنت تاركهم وكعـ ـبتنا فأمر مابدا لك

ويقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا
يارب فامنع عنهم حماكا

فالتفت وهو يدعو ، فإذا هو بطير من نحو اليمن ، فقال والله انها لطير غريبة ما هى بنجدية ولا تهاميه ، وكان مع كل طائر حجر فى منقادة وحجران فى رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة وعن ابن عباس انهارأى منها عند أم هانئ نحو قفير مخططة بحمرة كالجزع الظفارى، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه فهلكوا فى كل طريق ومنهل ودوى أبرة فتساقطت أنامله ، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره أبو يكوم وطائر يحلق فوقه ، حتى بلغ النجاشى فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر وخر ميتا بين يديه وعن عائشة رضى الله عنها – قالت :

رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان (١)

---

(١) ينظر القصة مفصله فى السيرة النبوية : لابن هشام ١/٢٩-٤٠ ، صفوة السيرة النبوية : لابن كثير – ج١ – ص ١٦-٢٣ – ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وهكذا يدرك ابن ادم أنه ضعيف جدا أمام قدرة الله ، وهذا الإدراك لو استقر فى القلوب لما تجبر فى الأرض ضعيف (وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)(١) القوة فيه عارضه وقتيه بين ضعفين .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) (٢)

* وأما أثره الإقتصادى على قريش :

فلا شك أن موقف عبد المطلب وتضرعه عند البيت واستجابه الله له وإهلاكه لتلك القوة العاتية قوة الدولة الرومانية التى جاء وبيها – أبرهه – لينقذ وعيده ..

هذا الموقف زاد من قداسة البيت الحرام لدى العرب وباقى الأمم وفرض على القبائل احتراماً واضحا لقريش ، ورهبة لجنا بها .

يقول الفخر الرازى :

(كان أشراف مكة يرحلون للتجارة هاتين الرحلتين ويأتون لانفسهم ولأهل بلدهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب وهم إنما كانوا يربحون فى أسفارهم ، ولأن ملوك النواحى كانوا يعظمون أهل مكة ويقولون : هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة ، حتى أنهم كانوا يسمون أهل مكة أهل الله فلو تم للحبشة ما عزموا عليه من هدم الكعبة لزال عنهم هذا العز ولبطلت تلك المزايا فى التعظيم والإحترام ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحى يتخطفون من كل جانب ويتعرض لهم فى نفوسهم وأموالهم ، فلما أهلك الله أصحاب الفيل ورد كيدهم فى نحرهم ازداد وقع أهل مكه فى القلوب ، وازداد تعظيم ملوك الأطراف لهم فازدادت تلك المنافع والمتاجر ،فلهذا قال الله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ [الفيل : آية ١] (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) [قريش : ١، ٢](٣))

والمفسرون على أن بين السورتين رباطا وثيقا فى المعنى قال القرطبى فى بداية سورة قريش (١)

---

(٢) سورة النساء : آية رقم : ٢٨ .

(٣) سورة الروم : آية رقم : ٥٤ .

(١) مفاتيح الغيب : ٩٨/١٦ .

(قيل : إن هذه السورة متصلة بالتى قبلها فى المعنى ، يقول: اهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش إى لتأتلف ، أو لتتفق او لكى تأمن قريش فتؤلف رحلتيها ، ومن عد السورتين واحده أبى بن كعب ، ولافصل بينهما فى مصحفه ، وقال سفيان بن عيينة كان لنا إمام لا يفصل بينهما ويقرؤهما معا ، وقال عمرو بن ميمون الأودى :

صلينا المغرب خلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقرأ فى الاولى (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) [التين : ١] وفى الثانية (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ)[الفيل :١] ، (لإِيلَافِ قُرَيْشٍ) [قريش :١] .

وقال الفراء : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى ، لانه ذكر اهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال : "لإيلاف قريش أى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش . وذلك ان قريشا كانت تخرج فى تجاراتها فلا يغار عليها ولا تقرب فى الجاهلية يقولون : هم أهل بيت الله جل وعز ، حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ،ويأخذ حجارتها ، فيبنى بها بيتا فى اليمن يحج الناس إليه فأهلكهم الله عز وجل فذكرهم نعمته)

فالله تعالى قد انتقم من جبابرة الحبشة وحفظ بيته الحرام ، وحفظ بذلك أهل مكة وزاد من خيراتهم وثمراتهم لعلهم يشكرون وإن كانوا كفروا بها حينا من الدهر ، فقد من الله عليهم بعد ذلك وجعلهم من الشاكرين .

والخلاصة :

أن مكة التى كانت مرتعا للحبيب (ﷺ) منذ صغره وشرفت بمولده بها لم تكن أرضا زراعيا فهى أرض صخرية واد غير ذى زرع ولم تكن أرضا صناعية فقد كانوا يتأففون من الصناعات ويكلونها إلى الموالى ...

ولم يكن لهم مورد إلا التجارة فقد من الله عليهم بالبيت يجبى اليه ثمرات كل شئ وبرحلتى الشتاء والصيف واسبغ عليهم نعمة الأمن بموجب الإيلاف الذى ذلل لهم الطرق فى ربوع الجزيرة العربية ثم كان حادث الفيل الذى عظم شانهم ورفع قدرهم بين الناس فزدادوا منعة وهيبة بل

(٢) الجامع لاحكام القران : ١٠ / ١٣٧ .

واستقر فى أذهان الناس من حولهم ان أى أحد ينال منهم سوءا فسوف ينال جزاء أبرهة لأنهم أهل حرم الله .

" المبحث الثانى "
نشأة النبى (ﷺ) الإقتصادية

اولا : الظروف الإقتصادية التى اكتنفت النبى (ﷺ) فى طفولته المبكرة .

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يولد نبيه (ﷺ) يتيما حيث مات أبوه قبل أن يراه .

ولم يترك له شيئا ذا بال ليتحقق للنبى (ﷺ) مع اليتم قلة ذات اليد.

وكان جلة ما تركه له أبوه (أم أيمن وخمسة أجمال ،وقطعة غنم ، فورث (ﷺ) ذلك ، وكانت أم أيمن تحتضنه) (١) وخمسة أجمال وقطعة غنم وأمة لا تعد ثروة ترتفع بصاحبها إلى درجة الأغنياء ، وكان قدر الله أن تتفتح عينا الرسول (ﷺ) فلا يجد الثراء الذى به يحيا حياة الترف ..

وحالة الفقر هذه ذكرها القرآن الكريم فى سورة الضحى فى قوله تعالى : (وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى) (٢)

وحالة الفقر هذه التى كان عليها النبى (ﷺ) قبل أن يغنيه الله هى تلك التى ورثها عن أبيه .

ولم يك أبوه " عبد الله " فقيرا فحسب بل أن عمه الشقيق أبا طالب الذى استقرت كفالته له كان كذلك فقيرا ذا عيال (لا مال له وكان

---

(١) صفه الصفوة : لابن الجوزى ١٨/١ ، ويقول ابن القيم : (أم أيمن بركة الحبشة وكان ورثها من ابيه ، وكانت دايته ، وزوجها من حبه زيد بن حارثه ، فولدت له أسامة ، وهى التى دخل عليها أبو بكر وعمر بعد موته (ﷺ) وهى تبكى ، فقالا : يا أم أيمن : ما يبكيك فما عند الله خير لرسوله : قالت : أنى لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله ، وإنما أبكى لانقطاع خبر السماء ، فهيجتهما على البكاء فبكيا ، زاد العاد ٣٠/١ .

(٢) سورة الضحى : آية رقم : ٨ : وعائلا : أى فقيرا لا مال له ، يقال : عال الرجل يعيل عليه إذا افتقر ، وقال الشاعر :

فما يدرى الفقير متى غناه ... وما يدرى الغنى متى يعيل

أى يفتقر ، وفى الحديث : ما عال من اقتصد .

له قطعة من ابل بعرنه فيبتدر اليها ، فيكون فيها ، ويؤتى بلبنها إذا كان حاضرا بمكة ...

وكان أبو طالب يقرب إلى أولاده تصبيحهم أول البكرة فيجلسون وينتهبون ، ويكف رسول الله (ﷺ) يده لا ينتهب معهم فلما رأى ذلك أبو طالب عزل له طعامه على حده .

وكان النبى (ﷺ) يصبح فى اكثر ايامه فيأتى زمزم فيشرب منها شربة ، فربما عرض عليه الغداء فيقول لا أريده أن شبعان (١)

إن النبى (ﷺ) لم ينقلب مع عمه أبى طالب عيشه الرغد بل كان فى جو حافل بالعيال قليل بالمال ، مما جعل النبى (ﷺ) يتعفف فى كثير من أحيانه ويكتفى عن طعام عمه القليل الذى لا يكفى أولاده بتضلعه من ماء زمزم .

انها القناعة التى أكرمه الله بها منذ الصغر ، فهو مع القليل صابر لا يظهر ولا يشكو جوعا و لا مخمصة .

يقول الشيخ محمد الخضرى (٢) رحمه الله :

(وكان الرسول (ﷺ) فى مدة كمالة عمه مثال القناعة والبعد عن السفاسف التى يشتغل الاطفال بها عادة كما روت أم أيمن حاضنته ، وكان إذا اقبل وقت الأكل جاء الاولاد يختطفون ، وهو قانع بما سيسيره الله له) وتلك خصلة لا يمنحها الله تعالى إلا من اصطفاه على عينه تنشأ مع (ﷺ) وتشب معه حتى إذا جاءت الدنيا بكل مغرياتها تقلصت فى يده الشرية ينفقها فى سبيل الله حيث يشاء (ﷺ) .

يقول الشيخ الغزالى رحمه الله تعالى :

(لكن محمد (ﷺ) على كرم محتده ، لم يرزق حظا وافراً من الثراء فكانت قلة ماله مع شرف نسبه سببا فى ان يجمع فى نشأته خير ما فى طبقات الناس من ميزات .

إن أبناء البيوتات الكبيرة تغريهم الثروة بالسطو ، فإذا فقدوا هذا السلاح ، وكانت لهم تقاليد كريمة بذلوا جهودا مضنية ليحتفظوا بمكانتهم وشممهم ولذلك يقول قائلهم :

---

(١) اتحاف الورى باخبار ام القرى : عمر بن فهد – ج١ – ص ١٠٢ .

(٢) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين : ص ١١ .

وإنا – على عض الزمان الذي بنا – نعالج من كره المخازي الدواهيا

وربما لا نرى بعض الناس حرجا من أن يعلن فاقته ويكشف صفحته غير أن هناك بعضا يطوون همومهم في همتهم ثم يبدون للدنيا مشمرين ومن هؤلاء عبد الله بن عبد المطلب ..

كان عبد المطلب سيد مكة بيد أن هذه السيادة التي انتهت اليه انتهت به ، ولم تستقر في عقبه ، إذ اشتد منافسوهم في زعامة أم القرى وبدا كأن الأمر سيؤول إليهم ، بل إن هي إلا أعوام حتى تصدرت أسرة عبد شمس ، ثم مر أعوام أخرى ، فإذا أبو سفيان يتزعم مكة ، وبذلك تنتقل السيادة عن بني هاشم .

و " عبد الله " أصغر أبناء عبد المطلب وله في قلبه منزلة جليلة وقد زوجه بآمنه بنت وهب ثم تركه يسعى في الحياة وحده فخرج وهو عروس بعد أشهر من بنائه بآمنه خرج في مناكب الارض ابتغاء الرزق ، وذهب في رحلة الصيف الى الشام فذهب ولم يعد .. عادت القافلة تحمل أنباء مرضة ثم جاء بعد قليل نعيه .

وكانت آمنة تنتظر رجلها الشاب الجلد لتهنأ بحياها معه وتشعره بأن في أحشائها جنينا يوشك أن تقر به عينهما . غير أن القدر – لحكمة عليا – حسم هذه الأماني الحلوة فأمست الزوج المحسودة أيما .

تعد الليالي لتودع الحياة الموحشة " بيتيمها " الفريد (١)

(اقبلت " آمنة " على ابنها تحنو عليه في انتظار المراضع المقبلات من البادية يتلمسن تربية أولاد الأشراف ، والأعرابيات اللاتي يقصدن مكة لهذه الغاية هن طالبات رزق ويسار ، ولم يكن لمحمد اب ترقب عطاياه، أو غنى تغرى جدواه فلا عجب إذا زهدت فيه المراضع وتطلعن إلى غيره(٢)

* أبرز ما يستفاد من كلام الشيخ الغزالي رحمه الله ...

١ – بالرغم من أن عبد الله كان اصغر ولد عبد المطلب إلا انه لم يكن مرفها ولم ينل شيئا من ابيه (عبد المطلب) يتميز به عن إخوته ،

(١) فقه السيرة : ٦٠ – ٦١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٦٤ .

لهذا داب وكافح وسافر تاركا زوجه وهو حديث عهد بها ، والسفر قطعة من العذاب .

وكان يكفى " عبد الله " أن يرعى ابل عبد المطلب وهى كثيرة لكنه اثر أن تكون ثروته من كده ومن الضرب فى الأرض يبتغى من فضل الله ، ومن تحمل الام فراق الأهل والوطن .

٢ – كان قدر الله أن لا يرث ولد عبد المطلب الزعامة منه فورثها بنو عبد شمس ثم أبو سفيان .

لكن ورث أولاده الشرف ، وتلك حكمة بالغة ، فإنهم لو ورثوا الزعامة كما ورثوا الشرف لظن الناس ظنونا أن رسول الله (ﷺ) يطلب الزعامة أو يخلط الأمر على الناس بين الزعامة والرسالة ..

ولما بعث رسول الله (ﷺ) دحية الكلبى بكتاب إلى هرقل عظيم الروم دعا أبا سفيان وكان فى أرض الروم ثم سأله عن رسول الله (ﷺ) وقال أبو سفيان (١) : –

(أول ما سألنى عنه أنه قال : كيف نسبه فيكم ، قلت هو فينا ذو نسب قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت : لا قال : كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا ... الحديث وفيه (وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فقلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه) .

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى : كتاب بدء الوحى : باب ٦ رقم ٧/١/ ٤٢-٤٤ .

* الحكمة من فقر النبى (ﷺ) : -

إن الفقر آفة تمجها النفس السوية وتنفر منها ، ولا يستسلم له إلا إذا كانت عضته قد أصابت مقتلا .

فالمريض يقاوم فإذا اضعف جسمه وانتهت مناعته عن مقاومة المرض استسلم له..

لكن قد ينفع السم لعلاج علة لا تجدى معها غيره ..

وإذا كان الغنى مطغيا فى كثير من أحيانه (إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) (١) فياتى الفقر علاجا مؤقتا لذوى العقول ليترك فى أنفسهم عبرة وعظة بليغة ولقد شاءت ارادة الله أن ينشأ خير خلقه وصفوة رسله ورحمته للعالمين فى هذه الظروف لحكم غوالى من ابرزها :

١ – إن الترف والثراء الفاحش يترك فى نفس الفتى عوجا (والتدليل يؤدى إلى رخاوة الكيان النفسى للطفل – فتى كان أو فتاه والرخاوة عيب فى البناء تجعله غير متماسك ، وغير صالح للإعتماد عليه فى مهمات الأمور ، وظروف الحياة لا تتركنا لأنفسنا ولا ترحم رخاوتنا (يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) (٢)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)(٣)

والمدللون ذو الطبائع الرخوة لا يقدرون على الكدح ، فيتعبون فى حياتهم ويتعبون) (٤) ، ولقد حث الإسلام أبناءه على الاخشوشان وحذر من الإغراق فى التدليل والنعيم فقال (ﷺ) (أياكم والتنعيم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين) (٥) ، والمراد بالتنعيم هنا هو العيش فى نعيم مغرق دون التعرض لخشونة الحياة التى تقوم طبع الرجال على مجابهة الأحداث العظام وكان من الحكم الغوالى التى من اجلها نزل الوحى على العرب

---

(١) سورة العلق : آية رقم : ٦ ، ٧ .

(٢) سورة الإنشقاق : آية رقم : ٦ .

(٣) سورة البلد : آية رقم : ٤

(٤) منهج التربية الإسلامية : محمد قطب ١١٢/٢ .

(١) أنظر كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للعلامة : علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الندى البرهان فورى ١٩٢/٣ رقم ٦١١١ ط مؤسسة الرسالة : ط٥ – ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥ م ضبطه وفسر غريبة الشيخ بكرى هانى

انهم كانوا اصحاب باس وشكيمة (وكانت لهم قدرة عجيبة على تحمل المكارة ، والصبر فى الشدائد ، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة ، قليلة الزرع والماء ، فالفوا اقتحام الجبال الوعرة والسير فى حر الظهيرة ، ولم يتاثروا بالحر ولا بالبرد ، ولا وعورة الطريق ، ولا بعد المسافة ولا الجوع ولا الظمأ ،ولما دخلوا الإسلام ضربوا أمثلة رائعة فى الصبر والتحمل ، وكانوا يرضون باليسير ، فكان الواحد منهم يسير أياما مكتفيا بتمرات يقيم بها صلبه ، وقطرات من الماء يرطب بها كبده (١)

وان محمداً(ﷺ) كان يعد اعداداً يتناسب مع طبيعة الرسل ويؤهله لحمل اعباء الرسالة (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) (٢)

فرسوخ القول الذى ابت السماوات والأرض والجبال حمله خوفا من التقصير فى شانه كان لابد أن يعد المصطفى (ﷺ) اعدادا بدنيا ونفسيا وعقليا وقلبيا يتناسب مع طبيعة هذا القول الثقيل .

٢ – انه (ﷺ) بعث رحمه للعالمين عامة والمستضعفين خاصة ، يشعر بالامهم ويعمل على تخفيفها وازالتها ، ويسعى على تحقيق السعادة لهم .. ولن يتحقق هذا الدور العظيم للحبيب (ﷺ) إلا بعد أن يذوق مرارة الحرمان ..

يقول الشيخ مصطفى السباعى – رحمه الله –

(ان فى تحمل الداعية الالم اليتم او العيش ، وهو فى صغره ما يجعله اكثر احساسا بالمعانى النبيلة ، وامتلاءا بالعواطف الرحيمة نحو اليتامى او الفقراء أو المعذبين ، وأكثر عملا لإنصاف هذه الفئات والبر بها، والرحمة لها ، وكل داعية يحتاج إلى أن يكون لديه رصيد كبير من العواطف الإنسانية النبيلة التى تجعله يشعر بالام الضعفاء والبائسين ، ولا يوفر له الرصيد شئ مثل ان يعانى فى حياته بعض ما يعانيه أولئك المستضعفون كاليتامى والفقراء والمساكين (٣)

إنه أمر فطرى أن لا يشعر المرء بأخيه الا اذا ذاق ما يذوق أو بعضا منه ، وإلا إذا عانى ما يعانيه أو يكابده .

---

(٢) السيرة النبوية : د / على الصلابى ١/٤٠ .

(٣) سورة المزمل :اية رقم : ٥

(١) السيرة النبوية : دروس وعبر : ص ٢٨

وهذا شرع الله الصيام وفرضه وكان من حكمة فرضيته أن يشعر المجتمع بعضه ببعض غنيه بفقيره ليتحقق التكافل فيما بين المجتمع المسلم الذى شبهة الرسول (ﷺ) بالفرد الواحد.

وما ضرب العظماء من المصلحين المثل الاعلى والمثالية النادرة إلا لانهم حملوا أنفسهم على مكابدة الجوع ورعا وتجردا من حظوظ الدنيا فـ (يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام فى تلك السنين ، فقيل له : أتجوع وبيدك خزائن الارض ؟

فقال : إنى أخاف أن شبعت ان أنسى الجائع ، وأمر يوسف طباخ الملك ان يجعل غذاءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين ، فمن ثم جعل الملوك غذاءهم نصف النهار (١)

وهذه التربية والتنشئة الربانية التى تدرج عليها النبى (ﷺ) قد جعلت رسولنا (ﷺ) يتكيف مع أصعب الظروف ويؤدى رسالته تماما على الذى أحسن ..

ففى غزوة الخندق يروى سيدنا جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن موقف رسول الله (ﷺ) فيقول :

(أنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبى (ﷺ) فقالوا :هذه كدية عرضت فى الخندق فقال :

انا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة ايام لا نذوق ذواقا ، فأخذ النبى (ﷺ) المعول فضرب فى الكدية ، فعاد كثيبا أهيل أو أهيم ، فقلت يا رسول الله اتذن لى إلى البيت ، فقلت لامراتى رأيت بالنبى (ﷺ) شيئا ما كان فى ذلك صبر ، فعندك شئ فقالت : عندى شعير وعناق. فذبحت العناق وطحنت الشعير ، حتى جعلنا اللحم بالبُرمة ، ثم جئت النبى (ﷺ) ، والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافى قد كادت ان تنضج ، فقلت طعيم لى فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان . قال : كم هو ؟ فذكرت له ، فقال : كثير طيب . قال : قل لها لا تنزع البرمة ، ولا الخبز من التنور حتى آتى قال قوموا فقام المهاجرون والأنصار ، فلما دخل على امراته قال ويحك جاء النبى (ﷺ) بالمهاجرين والأنصار ، ومن معهم قالت هل سألك ؟ قلت نعم . فقال ادخلوا لاتضاغطوا ، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ،ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب إلى

---

(١) الجامع لاحكام القران : للقرطبى المجلد ٥ – ص ١٤٤ .

أصحابه ثم ينزع ، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقى بقية ، قال : كلى هذا وأهدى فإن الناس اصابتهم مجاعة (١)

وإذا كان الناس يربطون – فى الخندق حجراً واحدًا على بطونهم من هذه المجاعة فإنه (ﷺ) كان يربط الحجرين على بطنه ، من شدة ما أصابهُ من كبد .

ولولا أن الله هيأه لهذا فى طفولته لما ضرب المثل الأعلى فى الصبر استسهال تلك المصاعب التى تنأى بحملها الجبال .

ولقد بلغ من براعته (ﷺ) ان ربى رجالاً عاشوا لامتهم فتعبوا حتى استراحت الأمة وجاعوا حتى شبعت ، ومن هؤلاء كان عمر بن الخطاب الذى تأسى بين (ﷺ) فى ايثار الرعية على نفسة وطوى رغبات نفسه فى كثير من المباحات حتى كان مضرب المثل فى العدل .

ففى عام الرمادة أخذت بطنه تقرقر من أكل الزيت ، وكان قد حرم نفسه السمن يقول انس رضى الله عنه : فنقر بطنه بأصبعه وقال: إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس .

وفى رواية (اصاب الناس سنة غلا فيها السمن ، وكان عمر يأكل الزيت فيقرقر بطنه فيقول : قرقر ما شئت ، فوالله لا تأكل السمن حتى يأكله الناس ثم قال : اكسر عنى حره بالنار فكنت اطبخه له فيأكله (٢) ، وأتصور البشرية فى وقتنا المعاصر قلما تجد حكاما يحاكون رسول الله ومن تربى على يديه من الخلفاء الذين تربوا قبل أن يربوا الرعية ، وقدموا لهم من أنفسهم خير مثال .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى : كتاب المغازى : باب غزوة الخندق : ٤٥٦/٧ برقم ٤١٠١ .

(٢) تاريخ الخلفاء : للسيوطى : ص ١٠٥ – دار الفجر الحديث .

" المبحث الثالث "

حقيقة هذا الغنى

بعد أن عرفنا أن رسول الله (ﷺ) نشأ فقيرا وبينا من الحكمة وراء ذلك ملخصة فى تربيته على تحمل الصعوبات التى يعجز أمامها المدللون، ويستطيع أن يمسح الآلام عن الأنام ، وإن ذلك ما كان ليتحقق لولا أن رسول الله (ﷺ) ذاق مرارة اليتم والفقر ..

بعد أن عرضنا هذا فى المبحث السابق نأتى لبيان حقيقة هذا الغنى وهل هو فى هذه الآية (وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى) (١) غنى بالمال أم بغير ذلك .

ذكر العلماء (٢) فى طبيعة هذا الغنى أقوالاً ، أذكر منها :

القول الأول : -

إن الله تعالى أغناه بتربية أبى طالب ، ولما اختلفت أحوال أبى طالب أغناه (الله) بمال خديجة ، ولما اختل ذلك اغناه الله بمال ابى بكر ، ولما اختل ذلك امره بالهجرة واغناه بإعانة الأنصار ثم أمره بالجهاد وأغناه بالغنائم ، وإن كان إنما حصل بعد نزول هذه السورة ، لكن لما كان معلوم الواقع كان كالواقع (٣)

وقفة مع هذا القول : -

يبين هذا القول طبيعة الغنى التى من الله به على نبيه (ﷺ)وأن الله قد اختار له عمه أبا طالب الذى كان يرى (محمدا) (ﷺ) ولدا له ، فكان يكرمه ويحنو عليه حنو الأب الشفوق ، وأن الله إختار له تلك المرأة الرزينة التى تعدل العديد من الرجال ، ثم اختار له أبا بكر ،ثم الأنصار بعد الهجرة حتى كان الجهاد فىسبيل الله وما من به عليه من غنائم .

والمتأمل فى حياة الرسول (ﷺ) يرى أنه قد أعطاهم أكثر مما أخذ منهم .

---

(١) سورة الضحى : آية رقم : ٨ .

(٢) الإمام القرطبى ، والإمام الفخر الرازى والحافظ ابن كثير وغيرهم فى سورة الضحى وسأقتصر هذا الفخر الرازى فى تفسيره لاية الضحى ، لاستفاضته .

(٣) التفسير الكبير : ج ٣١ ، ص ١٩٩ .

أ – فإذا نظرنا إلى كفالة عمه له نرى أنها لم تكن عبئاً على عمه ، بل كان رسول الله (ﷺ) يرعى الغنم ويتعب نفسه من أجل عمه .

يقول د / على الصلابى : (لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة ، وكان له فى الحنو والشفقة كالأب الشفوق ،ولكنه (ﷺ) ما إن أنس على نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب ، ويتعب نفسه لمساعدة عمه فى قوته الانفاق وهذا يدل على شهامة فى الطبع وبر فى المعاملة وبذل للوسع) (١) .

ولما فتح الله على نبيه بعد زواجه من السيدة خديجة رضى الله عنها عمل على تخفيف العبأ على عمه .

(اصاب قريشا أزمة شديدة ، وكان ابو طالب ذا عيال كثيرة ، فقال رسول الله (ﷺ) لعمه العباس ، وكان من أيسر بنى هاشم : يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق حتى نخفف عنه من عياله ، فأخذ رسول الله (ﷺ) عليا فضمه إليه ، فلم يزل على مع رسول الله (ﷺ) حتى بعثه الله نبيا فاتبعه على وآمن به وصدقه) (٢) صحيح أن ابا طالب كفله عائليا واجتماعيا فى صغره ، وكان له ركنا شديدا يأوى إليه لكنه (ﷺ) يعمل على رد الجميل لعمه .

ب – أما خديجة رضى الله عنها ، فلم تكن هى الأخرى ذات يد على رسول الله (ﷺ) بقدر ما كان رسول الله (ﷺ) له يد عظمى عليها .

وذلك لما يلى :

١ – انه كان مَصْدرَ خير وبركة وغناء للمال .

٢- ان إنفاقها المال عليه كان على ضربين .

الأول : قبل نزول الوحى عليه : ولم يكن لها منة عليه ، وذلك لعدة اعتبارات من أبرزها :

١ – عظم النبى (ﷺ) فى نفسها لعظيم عشرته وخلقه .

---

(١) السيرة النبوية : د / على الصلابى / ١ / ٦٦ .

(٢) اتحاف الورى : باخبار أم القرى ١٧٨ .

٢ – البركة التى حطت برحالها والنماء الذى اصاب مالها بزواجها منه (ﷺ) ، فما كانت تنفقه عليه (ﷺ) كان من بقيه خيره (ﷺ) وعظيم بركته .

٣- إن النبى (ﷺ) لم يكن عالة على مالها بل بذل مجهودا بدنيا حتى زاده وغاه ..

يقول الشيخ الخضرى- رحمه الله تعالى – (١)

(ولما شرفت خديجة بزواجه ، وكانت ذات يسار عمل فى مالها، وكان ياكل من نتيجه عمله ، وحقق (ﷺ) ما امتن عليه به فى سورة الضحى بقوله جل ذكره : -

(الم يجدك يتيما فاوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى)ا.هـ عمل فى مالها لانه لم يتعود البطالة والكسل (ﷺ) ، وكفاها استئجار التجار ، ونقلها من مرحلة الخوف على مالها وتجاراتها وتعرضها لحالات نصب متكررة إلى مرحلة قرت عينها برجل ينمى مالها ولا ينقصه ويعطى ببركته أعظم مما يأخذ ..

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالى – رحمه الله تعالى – (٢)

(وقد استانف محمد (ﷺ) ما ألفه بعد زواجه من حياة التأمل والعزلة ، وهجر ما كان عليه العرب فى أحفلهم الصاخبةمن إدمان ولغو وقمار ونفار ، وإن لم يقطعه ذلك عن إدارة تجارته ، وتدبير معايشة، والضرب فى الأرض والمشى فى الأسواق)

الثانى : بعد نزول الوحى عليه (ﷺ) :

وإيمانها به (وكانت أول من آمن بالله ورسوله ، وصدق بما جاء منه. فخفف الله بذلك عن نبيه (ﷺ) ، لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه ، وتصدق وتهون عليه أمر الناس رضى الله عنها)(٣).

لما آمنت بالله حقا وبشرها الله بالجنة كان إغداقها – رضى الله عنها – المال على رسول (ﷺ) لا على أنه زوج يستأهل كل خير ، فقط ،بل زاد الأمر فكانت تضحى بمالها فى سبيل نصرة هذا الدين والعمل على

(١) نور اليقين : ص ١٨

(٢) فقه السيرة : ص ٨٢ .

(٣) السيرة النبوية : لابن هشام : ١٥٠/١ .

انتشارة فكان بيتها رضى الله عنها بيت دعوة وفاتحة خير على المؤمنين المستضعفين لهذا اثنى عليها النبى (ﷺ) ثناءًا عاطرًا فقال :

(كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) (١) وهؤلاء هن صفوة بنات حواء اختارهن الله لمهمة عظيمة .

(والقدر المشترك بين الثلاث نسوة (مريم ، فاسية ، وخديجة إن كلا منهن كفلت نبيا مرسلا ، واحسنت الصحبة فى كفالتها ، وصدقته ، فآسية ربت موسى وأحسنت إليه ، وصدقته حين بعث ، ومريم كفلت ولدها أتم كفالة وأعظمها وصدقته حين أرسل وخديجة رغبت فى تزويج رسول الله (ﷺ) بها وبذلت فى ذلك أموالها ، وصدقته حين نزل عليه الوحى من الله عز وجل (٢) وهذا كلام رائع وتعليق طيب على هذا الحديث النبوى الشريف يجمع بين هؤلاء الثلاثة ويتوجهن بتاج الكمال البشرى الذى حرمت منه بنات حواء ، والكثير من الرجال ، وسبب ذلك هو كفالتهن الثلاثة لثلاثة من المرسلين .

جـ - وأما كون الله أغناه بمال أبى بكر ..

فليس المقصود إغناء شخصه (ﷺ) ، وإنما اثراء الدعوة بعتق العبيد وسائر الصدقات ..

وفيه نزل قوله تعالى (٣) : (سَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى {٢٠} وَلَسَوْفَ يَرْضَى) .

(أجمع المفسرون منا على أن المراد منه أبو بكر رضى الله تعالى) (٤)

ذكر الإمام السيوطى فى تاريخ الخلفاء عن ابى سعيد بن الاعرابى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال أسلم أبو بكر رضى الله عنه يوم اسلم، وفى منزله اربعون ألف درهم فخرج الى المدينة فى الهجرة وماله

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الأطعمة : باب الثريد : ٤٦٢/٩ برقم ٥٤١٨ .

(٢) انظر البداية والنهاية : لابن كثير ٥٢/٢ بتصرفيين .

(٣) سورة الليل : آية رقم : ١٧-٢١ .

(٤) مفاتيح الغيب : للفخر الرازى : ١٨٥/١٦ .

غير خمسة الاف ، كل ذلك ينفقه فى الرقاب والعون على الإسلام(٥) وكون ابى بكر رى الله عنه ينفق ماله فى عتق الرقاب والعون على الإسلام فهذا برهان يقينه بأن ما عند الله هو خير وأبقى .

وأما الانصار الذى استحقوا شرف هذا الإسم لموقفهم العظيم من الإسلام ، فإن ما أخذوه من الرسول (ﷺ) كان أعظم ..يترجم هذا المعنى الحوار الذى دار بينهم وبين رسول الله (ﷺ) لما وجدوا فى أنفسهم لما رأوا رسول الله (ﷺ) يعطى المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين ويتركهم .

ذكر ابن هشام فى السيرة :

(لما أعطى رسول الله (ﷺ) ما اعطى من العطايا فى قريش وفى قبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شئ ، وجد هذا الحى من الانصار فى أنفسهم ، حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم لقد لقى رسول الله (ﷺ) قومه فدخل عليه سعد بن عباده ، فقال : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى انفسهم ، لما صنعت فى هذا الفئ الذى أصبت ، قسمت فى قومك ، وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب ، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شئ .

قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومى . قال : فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة (١) قال : فخرج سعد ، فجمع الانصار فى تلك الحظيرة قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم فلما اجتمعلوا له أتاه سعد ، فقال : قد أجتمع لك هذا الحى من الأنصار فاتاهم رسول الله (ﷺ) فحمدالله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : يا معشر الانصار : ما قالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها على فى أنفسكم ؟

ألم أتكم ضلالا فهداكم الله ؟

وعالة فاغناكم الله ؟

وأعداء فالف بين قلوبكم ؟!

قالوا بلى : الله ورسوله امن وافضل .

---

(٥) تاريخ الخلفاء : ص ٣٤ .

(١) الحظيرة : تعمل للابل من شجر لتقيها البرد والحر : مختار الصحاح /ص ١٤٨ .

ثم قال : الا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل .

قال : أما والله لوشئتم لقلتم فلصدقتم وصُدِّقتم .. اتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فأويناك وعائلا فأسيناك (١)

أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تالفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ..

ألا ترون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله (ﷺ) إلى رحالكم

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار وابناء الأنصار وابناء أبناء الأنصار قال : فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم ،وقالوا : رضينا برسول الله (ﷺ) قسما وحظا ، ثم انصرف رسول الله (ﷺ) وتفرقوا (٢)

وفى هذا النص بيان بقناعة الأنصار بأن رسول الله (ﷺ) اثقل فى موازينهم من الذهب والفضة وكل أعراض الدنيا فلما حاكمهم الرسول (ﷺ) الى ميزان الحب (حبهم لرسولهم الكريم إذا بكل الأعراض تطيش امام حب رسول الله (ﷺ) ،فما قدموه له ولأصحابه من تضحيات لا تساوى شيئا بجانب النور الذى قذفه الله فى قلوبهم باتباعهم لنبيه (ﷺ) وحبهم له .

فأبو طالب قد أخذ من ابن اخيه اكثر مما اعطاه ، وكذلك زوجته خديجة فهى وأبو بكر والأنصار لم ينفقوا على شخص " محمد " وإنما انفقوا على رسالة "محمد " (ﷺ) التى جاء بها ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد .

القول الثانى (٣) :

(أغناه بأصحابه كانوا يعبدون الله سرا حتى قال عمر حين أسلم: أبرز أتعبد اللات جهرا ونعبد الله سرًا ، فقال (ﷺ) : حتى تكثر الأصحاب،

---

(١) أسيناك : اعطيناك – المعجم الوجيز – ص ١٨ .

(٢) السيرة النبوية :لابن هشام : ٢/ ٣٧ ٣٧١ .

(٣) مفاتيح الغيب : ١٦ / ١٩٨ .

فقال : حسبك الله وأنا ، فقال الله (حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)(١) فأغناه الله بمال ابى بكر وبهيبة عمر)

وقفة مع هذا القول :

إن النبى (ﷺ) كان نذيراً للعرب خاصة وللناس عامة .. قال تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)(٢)

فكان وحده يوما ما.. (وانا اول المسلمين) (٣)

و (المراد كونه أولا لمسلمى زمانه) (٤)

ثم تتابع المسلمون حول النبى (ﷺ) فتبعه الضعفاء ، وتبعه ذوى الرأى منهم ..

(قال سعيد بن جبير رضى الله عنه ، أسلم مع النبى (ﷺ) ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت هذه الآية)(٥) وهى قوله تعالى : (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) لذلك كان عمر – رضى الله عنه – كما قال ابن مسعود رضى الله عنه :

(كان اسلام عمر فتحا ، وكانت هجرته نصرا ،وكانت إمارته رحمة، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى ونطوف بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلناهم حتى تركونا نصلى)(٦)

وفى قصة اسلام عمر عن ابن اسحاق :

(فكبر النبى تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب الرسول (ﷺ) أن عمر قد أسلم فتفرق أصحاب النبى من مكانهم وقد عزوا فى أنفسهم

---

(١) سورة الانفال : اية رقم : ٦٤

(٢) سورة الشورى : اية رقم : ٧ .

(٣) سورة الأنفال : اية رقم : ١٦٣ .

(٤) مفاتيح الغيب : المجلد ٧ – ص ١١

(٥) المصدر السابق : ح٨ – ص ١٦٣ .

(٢ ، ٣) تاريخ الدعوة إلى الله فى عهد عمر بن الخطاب :د / يسر محمد هانى – ص ٢٠-